المحاضرة الأولى : قبل الوحي

النَّسبُ الشَّرِيفُ

السيد الأكرم الذي شَرُفَ الناسُ بوجوده هو: محمد بن عبد الله، من زوجه آمنة بنت وهب الزُّهرية القرشية. ابن عبد المطلب، من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية. وكان عبد المطلب شيخًا معظمًا في قريش يصدرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدمونه في مهاماتهم. ابن هاشم، من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية ابن عبد مناف، من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية. ابن قصي، من زوجه حُبَّى بنت حُلَيل الخزاعية، وكان إلى قصي في الجاهلية حجابة البيت، وسقاية الحاج وإطعامه، المسمى بالرفادة، والندوة وهي الشورى، لا يتم أمر إلا في بيته، واللواء، لا تعقد راية لحرب إلا بيده. ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار، لكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، وكاد يفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين، فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب، ثم لبنيه من بعده، أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار، وأقرها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن. وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الإسلام، وجعله حقًا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحًا له، وكذلك الندوة. وقصي بن كلاب، من زوجه فاطمة بنت سعد، وهي يمانية من أزد شنوءة. ابن مُرَّة، من زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن مالك. ابن كعب، من زوجه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضًا. ابن لؤي من زوجه أم كعب ماوية بنت كعب من قضاعة. ابن غالب، من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي. ابن فِهْر، من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل.

وفهر هو قريش -في قول الأكثرين- وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو تيم بن مرة، وبنو عدي بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث بن جرهم. ابن النضر، من زوجه عاتكة بنت عَدْوَان من قيس عَيْلَان ابن كنانة، من زوجه بَرَّة بنت مر بن أدّ، ابن خزيمة، من زوجه عَوانة بنت سعد بن قيس عيلان.

ابن مدركة، من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة. ابن إلياس، من زوجه خِنْدِف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة. ابن مضر، من زوجه الرباب بنت جندة بن معد. ابن نزار، من زوجه سَودة بنت عَك. ابن معد، من زوجه مُعَانة بنت جوشم من جرهم. ابن عدنان.

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين، أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق. غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول ﷺ ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب المستعربة١. نسب شريف كما ترى: آباء طاهرون وأمهات طاهرات، لم يزل عليه السلام ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هاديًا مهديًا من أوسط العرب نسبًا، فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كرامًا ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة، وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأنًا، ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعيًا بحسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهره اللوتَمَّم مكارم الأخلاق وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي١ أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل /نيسان سنة ٥٧١ من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل٢، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، وكانت قابلته الشِّفاء أم عبد الرحمن بن عوف، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره، فأقبل مسرورًا وسماه محمدًا، ولم يكن هذا الاسم شائعًا قبل عند العرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل٣، فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذًا لأمره، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، أمة أبيه عبد الله، وأول من أرضعه ثُوَيْبَة أَمة٤ عمه أبي لهب.

الرضاع:

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب٥ للولد، وكانوا يقولون: إن المربى في المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالًا يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول ﷺ حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء! ودرت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات.ه من ذلك والحمد لله.

المحاضرة الثانية :

حادثة شق الصدر:

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه، فأحدث ذلك عند حليمة خوفًا فردته إلى أمه وحدثتها قائلة: بينما هو وإخوته في بَهْم١ لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشقا بطنه فهما يَسُوطانه. فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه مُنْتَقَعًا لونه٢، فالتزمته٣ والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقا بطني، فالتمسا فيه شيئًا، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو.

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب:

ثم إن أمه أخذته منها، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء٤ فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورَقَّ له رِقَّة لم تُعْهَد له في ولده، لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأنًا عظيمًا في المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن تُوفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول ﷺ، فكفله شقيق أبيه أو طالب فكان له رحيمًا وعليه غيورًا، وكان أبو طالب مقلًا من المال فبارك الله له في قليله، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة، كما روت ذلك أم أيمن حاضنته، فكان إذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له .

السفر إلى الشام:

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة، أراد عمه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسول ﷺ فراقه، فرق له، وأخذه معه، وهذه هي الرحلة الأولى، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة -وهم بقرب بصرى- بَحِيْرَى١ الراهب، فسألهم عما رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن، فقالوا: إنه لم يظهر للآن، وهذه العبارة كثيرًا ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩].

حرب الفجار:

ولما بلغت سِنُّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة حضر حرب الفِجَار، وهي حرب كانت بين كنانة ومعها قريش، وبين قيس؛ وسببها: أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عكاظ٢ لتباع له، وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعة وشرف في قومه ليجيزها٣، فجلس يومًا وعنده البرَّاض بن قيس الكناني -وكان فاتكًا خليعًا، خلعه قومه لكثرة شره- وعروة بن عتبة الرحال فقال: من يجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البراض: أنا أجيزها على بني كنانة. فقال النعمان: إنما أريد من يجيزها على الناس كلهم. فقال عروة: أبيت اللعن أكلب خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقَيْصُوم٤ من أهل نجد وتهامة ٥. فقال البراض: أو تجيزها على كنانة يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم. فأسرها في نفسه، وتربص له حتى إذا خرج بالتجارة، قتله غدرًا، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر، ويحذرهم قيسًا قوم عروة. وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها، حتى أدركوا قريشًا وكنانة بنخلة، فاقتتلوا، ولما اشتد البأس وحميت قيس، احتمت قريش بحرمها، وكان فيهم رسول الله، ثم إن قيسًا قالوا لخصومهم: إنا لا نترك دم عروة، فموعدنا عكاظ العام المقبل. وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضًا، فلما حال الحول١ جمعت قيس جموعها وكانت معها ثقيف وغيرها، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش -وهم حلفاء قريش- وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم، وكان على بني أمية حرب بن أمية، وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفًا وسنًا، وهكذا كان على كل بطن من بطون٢ قريش رئيس. ثم تناجزوا٣ الحرب، فكان يومًا من أشد أيام العرب هولا، ولما اسْتُحِل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سمي يوم الفِجار، وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حرب بن أمية، ورهن لسدادها ولده أبا سفيان٤. وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيرًا ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور حتى أَلَّفَ الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم. تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى

تُرَدّ إليه مَظْلِمَتُه، وقد حضر هذا الحلف رسول الله ﷺ مع أعمامه، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: "لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حُمْرَ النَّعَم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت" ١. وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بِمَكَارِم الأخلاق، وهذا منها، وقد أقر دين الإسلام كثيرًا منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا.

رحلته إلى الشام المرة الثانية:

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمسًا وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سماه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحًا عظيمًا، وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات ما حببه في قلب ميسرة غلام خديجة.

زواجه خديجة:

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سرت من الأمين عليه الصلاة والسلام وأرسلت إليه تخطبه لنفسها، وكانت سنها نحو الأربعين، وهي من أوسط قريش حسبًا وأوسعهم مالاً، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب، فزوجها عمها، وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضِئْضِئ٣ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حَضَنَة بيته وسُوَّاس حرمه، وجعله لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفًا ونبلا وفضلا، وإن كان في المال قل،١ فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية٢ مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق كذا. وعلى ذلك تم الأمر، وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة، توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة، وهو ربيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

بناء البيت:

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمسًا وثلاثين سنة، جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها، فإنها كانت رضيمة٣ فوق القامة، فاجتمعت قبائلهم لذلك، ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم. فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل الإصلاح. قال: إن الله لا يهلك المصلحين. وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، وهناك وجدوا صحافًا نقش فيها كثير من الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين، ثم ابتدأوا في البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغي٤ ولا بيع ربا، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم، وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا، علامة على أنه من الكعبة، ولما تم البناء ثمانية عشر ذراعًا بحيث زيد فيه عن أصله تسعة أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد إلى إلا بدرج، أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسن رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عم خالد بن الوليد فقال لهم: يا قوم! لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: نَكِل الأمر لأول داخل. فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يداري ولا يماري،١ فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب". ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعه فيه وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيرًا ما يكون أمثالها سببًا في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن يَمَنَّ الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول ﷺ يقضي بينهم بما يرضي جميعهم. ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا، لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التي يحجون إليها، فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة، وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم، قال تعالى في سورة آل عمران: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جرهم فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت، ووليته خزاعة حينًا من الدهر، ثم أخذته منهم في عهد قصي بن كلاب، وبسببه أمنوا في بلادهم، فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصنًا أمينًا من اعتداء

العادين، وامتن الله عليهم بذلك في تنزيله، فقال في سورة العنكبوت: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧].

المحاضرة الثالثة :

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة:

لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئًا، بل ولد يتيمًا عائلًا فاسترضع في بني سعد، ولما بلغ مبلغًا يمكنه أن يعمل عملًا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه، ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بد

منه، لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى، وإبراهيم، وكانت حالتهم في صغرهم ليست سعة بل كلهم سواء؛ تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجًا لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها، وذلك سبب البلايا والمحن، وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري١، وهذه أيضاً من بالغ الحكم فإن الإنسان إذا استرعى الغنم -وهي أضعف البهائم- سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان لما هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال، ولما شب عليه الصلاة والسلام كان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب، وذهب بالتجارة لخديجة -رضي الله عنها- إلى الشام على جعل يأخذه، ولما شرفت خديجة بزواجه، وكانت ذات يسار، عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله٢. وحقق الله ما امتن عليه به في سورة الضحى بقوله جل ذكره: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى: ٦-٨] بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة، هداه للكتاب٣ والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام ولم يكن يدري ذلك قبل. قال تعالى في سورة الشورى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى: ٥٢]

المحاضرة الرابعة :

سيرة في قومه قبل البعثة:

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقا، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضل قومه مروءة، وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، فسموه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر، لا والله! ما هو بساحر. قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذي يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه. ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله. ورد ذلك في أول صحيح البخاري١.

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضًا شديدًا حتى ما كان يحضر لها احتفالا أو عيدًا مما يقوم به عُبَّادها، وقال عليه الصلاة والسلام: "لما نشأت بُغِّضَتْ إلي الأوثان، وبُغِّض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك" ٢. وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعا عظيما، وذلك كله من الصفات التي يحلي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها، أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم، وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

المحاضرة الخامسة:

ما أكرم الله به قبل النبوة:

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعًا فيهم، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مُجْدِبين١ فلما صار بينهم صارت غُنَيْماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبنًا، ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته:

وإذا سخَّر الإله أُناسا ... لسعيدٍ فإنَّهم سُعداءُ

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظِّ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى، فمن استبعد ذلك كان قليل النظر، لا يعرف من قوة الله شيئًا، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب.

ومن المكرمات الإلهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام٢، حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مشاركًا له في سفرهن وهذا ما حبّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأنًا، ولذلك لما جاءته النبوة كانت أسرع الناس إيمانًا به، ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق، وما سمعته من خوارق العادات.

ومن مِنَن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار٣، فكان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى لا يرى بناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدًا، وقد حدَّث بذلك عن نفسه. وليس في ذلك كبير إشكال فقد سخّر الله الجمادات للأنبياء قبله، فعصا موسى التقمت ما صنع سَحَرَة فرعون بعد أن تحوّلت حيّة تسعى ثم رجعت كما كانت، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عينًا لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين، وكذلك غيره من الأنبياء سخّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخَطَارة٤ شأنهم.

بُشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن، ونوه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيرًا برسولنا الكريم خطابًا لسيدنا موسى عليه السلام: وسوف أقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترئ علي بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل، وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك: أن ما قاله ذلك النبي باسم الرَّب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه١، ويقول اليهود: إن هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام، مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبيًّا آخر غير المسيح، فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان يحيى، يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا: أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا: أنت النبي؟ فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذا تُعَمّد إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي؟ فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح. ثم إن التوراة تقول في صفة النبي: إنه مثل موسى، وقد نصت في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى، وورد في هذه البشارة: أن النبي الذي يفتري على الله يقتل، ويشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة: ٤٤-٤٦] ونبينا صَلَّى الله عليه وسَلَّم مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثًا وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله، ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطمينًا لخاطره في سورة المائدة: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس} [المائدة: ٦٧] أكان يعجز الله -وهو القادر على كل شيء- أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى : {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الشورى: ٢٤]. وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الإخبار بما سيأتي، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها، ومنها ما لا ينفع معه الحدس والتخمين، كالإخبار بأن الروم سَيَغْلِبون

وبعد أن قهرهم الفرس قهرًا شديدًا حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم، فالإخبار إذاً بأن الرّوم سيردون ما فُقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله، ولذلك استغربه جدّاً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حقق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن، وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى.

وروى القاضي عياض في الشفا: أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: أجل! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥] وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا١.

وروي مثله عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تُعْمِهِ الرياسة حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار، وفي بعض طرق الحديث: ولا صخاب في الأسواق ولا قَوَّال للخنا، أُسَدِّده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، وأهدي به بعد الضلالة، وأُعَلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس. وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة فقال -وهو الصادق الأمين-: عبدي أحمد المختار مولده مكة ومهاجره المدينة -أو قال: طَيْبَة- وأمته الحَمَّادون الله على كل حال.

المحاضرة السادسة :

تبشير الإنجيل:

بشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]. وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وإنه يعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤]. وقد ورد في إنجيل برنابا -الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب الجهالة- ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة١.

حركة الأفكار قبل البعثة:

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظر، فقد حدث عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إنما دعانا للإسلام -مع رحمة الله تعالى لنا- ما كنا نسمع من أحبار يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فكثيرًا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله محمدًا أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا. وإنما قال لهم اليهود: نقتلكم معه قتل عاد وإرم؛ لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم٢: أن هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة، وكان أمية بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيرًا ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا. وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيسًا فكان يقول له: يا سلمان، إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة١. وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان، ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض لم يُهِنْ كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وِفَادَة رسله، ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من رد ردًّا لطيفًا وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوة يُرْهِب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن، وأما ما سمع من الهواتف٢ والكهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر، وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر، ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيدٍ لدعوته، وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فَتَأَمَّلْه ترشد هداك الله إلى الصراط السوي.

المحاضرة السابعة :

بدء الوحي والدعوة سرا

...

بدء الوحي:

لما بلغ عليه الصلاة والسلام سن الكمال وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيرًا ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك في أول فبراير شباط سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي، تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو تموز سنة ٦١٠.

وأول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصادقة٣، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال، ومن الصعب جدًّا على البشر تلقي الوحي من الملك لأول مرة، ثم حبب إليه عليه الصلاة والسلام الخلاء، ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله فإن في العزلة صفاء السريرة، وكان يخلو بغار حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرًا، وتارة أكثر، إلى شهر، وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد! أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: اقرأ. قال: "ما أنا بقارئ" . فإنه عليه الصلاة والسلام أمي لم يتعلم القراءة قبلاً، فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: "ما أنا بقارئ" . فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: "ما أنا بقارئ" . فأخذه فغطه الثالثة، ثم أرسله فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١-٥]. فرجع بها عليه الصلاة والسلام يرجف فؤاده، مما ألم به من الرَّوْع الذي استلزمته مقابلة الملك لأول مرة، فدخل على خديجة زوجه، فقال: "زملوني، زملوني" ، لتزول عنه هذه القشعريرة، فزملوه١ حتى ذهب عنه الروع٢، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي" ، لأن الملك غطه حتى كاد يموت، ولم يكن له عليه الصلاة والسلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله، فقالت: كلا والله! ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ٣،وتَكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيف،٤ وتعين على نوائب الحق، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك. ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل، ممن اطلعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم! اسمع من ابن أخيك. فقال: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره عليه الصلاة والسلام خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل، ثم قال: يا ليتني فيها جذعاً١ -شاباً جَلْداً- إذ يخرجك قومك -من بلادك التي نشأت بها، لمعاداتهم إياك، وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم. فاستغرب عليه الصلاة والسلام ما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول، حتى سموه الأمين، وقال: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟". قال: لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وقد نطق بذلك القرآن الكريم، قال تعالى في سورة إبراهيم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم: ١٣] ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام قال: وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا - معضدًا- ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

فترة الوحي:

وفتر الوحي مدة لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يومًا، ليشتد شوق الرسول للوحي، وقد كان، فإن الحال اشتد به عليه الصلاة والسلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها، حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيتبدي له الملك قائلاً: أنت رسول الله حقاً، فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحي٢.

عودة الوحي:

فبينما هو يمشي إذ سمع صوتًا من السماء فرفع إليه بصره، فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس بين السماء والأرض، فرعب منه لتذكر ما فعله في المرة الأولى فرجع وقال: "دثروني، دثروني" ، فأنزل الله تعالى عليه {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ} [المدثر: ١، ٢] حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} [المدثر: ٣] خصه بالتعظيم، ولا تشرك معه في ذلك غيره {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ٤] لتكون مستعدًّا للوقوف بين يدي الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذرًا نجسًا {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ٥] أي اهجر أسباب الرجز١ -وهو العذاب- بأن تطيع الله وتنفذ أمره {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} [المدثر: ٦] ولا تهب

أحدًا هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثر مما وهبت، فهذا ليس من شأن الكرام {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِر} [المدثر:٧] على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله.

الدعوة سرًّا:

فقام عليه الصلاة والسلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقوامًا جفاة لا دين لهم، إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجة لهم إلا أنهم متَّبِعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطًا بالعزة والأَنَفَة، وهو الذي كثيرًا ما كان سببًا في الغارات والحروب وإهراق الدماء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه، فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أَعْمَتْه الرياسة أدبر واستكبر كي لا تسلب منه عظمته، وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زوجه٢، وعلي بن أبي طالب ابن عمه، وكان مقيمًا عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره، لأن قريشا كانوا قد أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مُقِلاً كثير الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام لعمه العباس بن عبد المطلب: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه لنخفف من عياله، تأخذ واحدًا، وأنا واحدًا". فانطلقا وعرضنا عليه الأمر، فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب، وأخذ عليه الصلاة والسلام عليًّا، فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام، فكان تابعًا للنبي في كل أعماله، ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان، واتباع الهوى، وأجاب أيضًا زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، مولاه عليه الصلاة والسلام، وكان يقال له زيد بن محمد، لأنه لما اشتراه أعتقه وتبناه، وكان المتبنى معتبرًا كابن حقيقي يرث ويورث، وأجابت أيضًا أم أيمن حاضنته التي زوجها لمولاه زيد، وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي، كان صديقًا لرسول الله ﷺ قبل النبوة يعلم ما اتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذبًا منذ اصطحبا، فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمي، أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وكان رضي الله عنه صدرًا معظمًا في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعف الناس، سخيًّا، يبذل المال، محببًا في قومه، حسن المجالسة، ولذلك كله كان من رسول الله ﷺ بمنزلة الوزير، فكان يستشيره في أموره كلها، وقال في حقه: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر" ١. وكانت الدعوة إلى الإسلام سرًّا حذرًا من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا من يثق به، ودعا أبو بكر إلى الإسلام من يثق به من رجال قريش، فأجابه جمع.

المحاضرة الثامنة

الجهر بالتبليغ :

مضت كل هذه المدة والنبي عليه الصلاة والسلام لا يظهر الدعوة في مجامع قريش العمومية، ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذرًا من تعصب قريش، فكان كل من أراد العبادة ذهب إلى شعاب مكة يصلي مستخفيًا١، ولما دخل في الدين ما يربوا على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم -وهو ممن ذكرنا إسلامهم- ومكث عليه الصلاة والسلام يدعو سرًّا حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحجر: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر:٩٤]، فبدل الدعوة سرًّا بالدعوة جهرا، ممتثلا أمر ربه واثقا بوعده ونصره، فصعد على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر الخبر، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب قريشًا، فقال عليه الصلاة والسلام: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟" .

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" . فقال أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله في شأنه: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ} [المسد:١-٥] والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب في نوادي النساء٢، ثم نزل عليه في سورة الشعراء٣: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف. {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ} [الشعراء: ٢١٥، ٢١٦] أي: العشيرة والأقربون { فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [الشعراء: ٢١٦] فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو! إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً" . فتكلم القوم كلامًا لينًا غير عمه أبي لهب الذي كان خصمًا لدودًا فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه

العرب، فإن أسلمتموه إذاً ذللتم، وإن منعتموه قتلتم، فقال أبو طالب: والله! لنمنعنه ما بقينا، ثم انصرف الجمع.

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزءوا به في مجالسهم فكان إذا مر عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء، لا يزيدون على ذلك، فلما عاب آلهتهم، وسفه عقولهم وقال لهم: "والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم" . ثارت في رءوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه، فطلبوا منه أن يخلي بينهم وبينه أو يكفه عما يقول، فردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله لما يريده لا يصده عن مراده شيء، فتزايد الأمر، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ، وحث بعضهم بعضاً على ذلك، ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منا، وإنا قد طلبنا منك أن تنهي ابن أخيك فلم تَنْهَه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه عقولنا، وعيب آلهتنا. فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقليد١ في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم اسعمال عقولهم فيما خلقت له، قال تعالى في سورة البقرة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ} [البقرة:١٧٠]. وقال في سورة المائدة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤]وقال في سورة لقمان: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} [لقمان: ٢١]. وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة: {قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣]. ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال: {قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ

المحاضرة التاسعة : سلام حمزة:

وكان بعض إيذائهم هذا سببًا لإسلام عمه حمزة بن عبد المطلب، فقد أدركته الحمية عندما عيرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إلى ذلك الشقي وغاضبه وسبه، وقال: كيف تسب محمدًا وأنا على دينه؟ ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلامًا، وأشدهم غيرة على المسلمين، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي أسد الله١.

وكما أوذي الرسول عليه الصلاة والسلام، أوذي أصحابه لاتباعهم له، خصوصًا من ليس له عشيرة تحميه، وترد كيد عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلوًا في أعينهم ما دام فيه رضاء الله، فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال جل ذكره في سورة القصص: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: ٥] وقد حقق ما أراد.

ومن الذين أوذوا في الله: بلال بن رباح كان مملوكًا لأمية بن خلف الجمحي القرشي، فكان يجعل في عنقه حبلًا ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أحد أحد، لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله، وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء -وهي الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت- ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحد أحد، مر به أبو بكر يومًا فقال: يا أمية، أما تتقي الله في هذا المسكين، حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، فاشتراه منه، وأعتقه فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى، لا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى} أمية بن خلف {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى، وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى} الصديق {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى، وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل: ١٤-٢١] بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله، وقد نبه الله جل ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه، وكفى بهذا شرفًا وفضلًا للصديق رضي الله عنه وأرضاه، وقد أعتق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليهم١.

ومنهم: حمامة أم بلال٢، وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدري ما يقول، وأبو فكيهة، كان عبدًا لصفوان بن أمية بن خلف. ومنهم امرأة تسمى زنّيرة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيمانًا، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم؟ لو كان ما أتى به محمد خيرًا ما سبقونا إليه أفتسبقنا زنيرة إلى رشد؟ فأنزل الله في سورة الأحقاف: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} [الأحقاف: ١١] وممن أعتق أبو بكر بعد شرائه: أم عنيس كانت أمة لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث.

وممن عذب في الله: عمار بن ياسر، وأخوه، وأبوه، وأمه، كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صبرًا آل ياسر فموعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت" . أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله، وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر، فإن أبا جهل كان يجعل له دروعًا من الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها، فقال المسلمون: كفر عمار، فقال عليه الصلاة والسلام: "عمار ملئ إيمانًا من فرقه إلى قدمه" وأنزل الله في شأنه استثناءً في حكم المرتد، فقال جل ذكره في سورة النحل: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل: ١٠٦].

وممن أوذي في الله: خباب بن الأرت، سبي في الجاهلية فاشترته أم أنمار، وكان حدادًا وكان النبي يألفه قبل النبوة، فلما شرفه الله بها أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك إلا إيمانًا، وجاء خباب مرة إلى رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله! ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه الصلاة والسلام محمرًا وجهه فقال: "إنه كان مَنْ قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه" . قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحال الشديدة التي لا يتصور فيها أعقل العقلاء، وأنبل النبلاء، قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة، اللهم إلا أن ذلك وحي يوحى إليه، ثم أنزل الله تعالى تثبيتًا للمؤمنين أول سورة العنكبوت: {الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ١-٣].

وممن أوذي في الله: أبو بكر الصديق، ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة، فخرج حتى أتى برك الغماد١ فلقيه ابن الدُغُنَّة -وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة- فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: مثلك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه، وطاف في أشراف قريش، فقال لهم: أبو بكر لا يُخْرَج مثله. أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان رجلا بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجدًا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: لقد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلى ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرْت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. رواه البخاري. وكان ذلك سببًا لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر رضي الله عنه١.

وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أَذِيَّة لحقته، ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم، فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شيء دونه سهلًا.

مساومة المشركين للنبي ﷺ ليترك الدعوة

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعًا، بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف -وكان سيدًا مطاعًا في قومه-: يا معشر قريش! ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا؟ فقالوا: أبا الوليد! فقم إليه فكلمه، فذهب إلى رسول الله وهو يصلي في المسجد، وقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال عليه الصلاة والسلام: "قل يا أبا الوليد أسمع" .

فقال: يا بن أخي! إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى، فقال عليه الصلاة والسلام: "لقد فرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم، قال: "فاسمع مني" فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصلت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {حم، تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ، قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ، إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [فصلت: ١-١٤].

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله لقد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله! ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر، يا معشر قريش، أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ، فإن تُصِبْه العرب كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيي١.

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته فأنزل الله تعالى في ذلك: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ١-٦] فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله، فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فيأتي بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جوابًا لهم في سورة يونس: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [يونس: ١٥].

وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به، وهو أنه بينما الرسول عليه الصلاة والسلام مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله بن أم مكتوم الأعمى-وهو ممن أسلموا قديمًا- والنبي مشتغل بالقوم، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم، فقال له عبد الله: يا رسول الله، علمني مما علمك الله وأكثر عليه القول، فشق ذلك على الرسول، وكره قطعه لكلامه، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف، فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة عبس: {عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ١-١٠] فما عبس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها في وجه فقير، وكان إذا أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم يقول له: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي" .

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا في باب آخر، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا، وقالوا: يا محمد، إن كنت صادقًا فأرنا آية نطلبها منك وهي أن تشق لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله: "اشهدوا" . وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة، ورواها عبد الله بن عباس وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر١ وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى في أول سورة القمر: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر:١] فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبي كبشة فأنزل الله فيهم: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} [القمر: ٢] ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد، فمنها أن قالوا كما في سورة الإسراء: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ {تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه} [الإسراء: ٩٠-٩٣] ولم يجبهم الله إلا بقوله: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً} [الإسراء: ٩٣] لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب

والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره في سورة الأنعام: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٠٩] وكيف يرجى الخير ممن قالوا كما في سورة الأنفال: [الأنفال: ٣٢] {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢] ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، وهذه سنة من سنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً، وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كي لا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم، وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} [الإسراء: ٥٩]. وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هيرودس١ طلب منه آية فلم يجبه إلى طلبه، فلما رأى ذلك سخر منه ورده إلى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه، وذلك مذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا.

هذا ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه حيث قالوا: {حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ} [الأنبياء: ٦٨] كما في سورة الأنبياء، أما هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يتركوا بابًا إلا ولجوه، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: "تفرقوا في الأرض، فإن الله سيجمعكم" ، فسألوه عن الوجه فأشار إلى الحبشة.

المحاضرة العاشرة :

إسلام عمر:

وفي ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوي القرشي بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم، قالت ليلى -إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها-: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبت بعيري أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا به، فقال لي: إلى أين يا أم عبد الله؟ فقلت: قد آذيتمونا في ديننا، نذهب في أرض الله حيث لا نؤذى، فقال: صحبكم الله، فلما جاء زوجي عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر، فقال: ترجين أن يسلم؟ والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب! وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى ﷺ، فإنه قال قبيل إسلامه: "اللهم أعز الإسلام بعمر" وكان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه الصلاة والسلام، فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر٢. فإنه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد ففعل وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم، وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه، فجاء العاص بن وائل السهمي -وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر- وعليه حُلَّة حبرة، وقميص مكفوف بحرير، فقال لعمر: ما بالك؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال: لا سبيل إليك فأنا لك جار. فأمن عمر، وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه. فرجع الناس من حيث أتوا١.

رجوع مهاجري الحبشة:

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد -وفي الكثرة بعض الأنس- وأضف إلى ذلك أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة.

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سببًا في رجوع مهاجري الحبشة، وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم، وتكلم فيها كلامًا حسنًا عن آلهتهم حيث قال بعد: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى} [النجم:١٩، ٢٠] تلك الغرانيق -جمع غرنوق وهي الطيور، ويراد بها الملائكة- العلى، وإن شفاعتهن لترتجى. فسجدوا إعظامًا لذلك وفرحًا.

وهذا مما لا تجوز روايته إلا من قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته، وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر، أما الحديث فسنده ومتنه قلقان، فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفا: لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحًا أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم، فبعد ذكر الأصنام قال: {إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم: ٢٣]، فالكلام غير مُنْتَظَم، ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة، فكيف بهذه؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم في سورة البقرة: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}

[البقرة:١٤٢]، ولكن لم يسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم أن قال: ما لك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها؟ وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مُهج١ الرجال.

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سببًا لرجوع مهاجري الحبشة يقولون أثناء كلامهم: إن الهجرة كانت في رجب، والرجوع كان في شوال، ونزول سورة النجم كان في رمضان، فالمدة بين نزول السورة وروجوع المهاجرين شهر واحد، والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذاك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة والإياب منها لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير في البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة، فلا غرابة بعد ذلك إن قلنا: إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين، ولكن الحمد لله فقد من علينا بحفظ كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب ففي السورة نفسها: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم: ٣] والذي يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى، فكيف يقول عليه الصلاة والسلام أو يجري على لسانه مما يبث الشكوك في الوحي؟ الأمر الذي يريده السفهاء، رد الله كيدهم في نحرهم.

والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود: أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ والنجم فسجد، وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته قتل بعد كافراً٢.

وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون، بل الذي يفيده قوله: فرأيته قتل بعد كافراً: أنه كان مسلماً ثم رأيته ارتد وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا، منهم: علي بن أمية بن خلف٣.

هذا، ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا من وجد له مجيرًا، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وقد رد عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم ير أن يكون مرتاحًا وإخوانه يعذبون.

كتابة الصحيفة:

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش، عرضوا على بني عبد مناف، الَّذين منهم الرسول عليه الصلاة والسلام، دية مضاعفة، ويسلمونه، فأبوا عليهم ذلك، ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيدًا من شبانهم يتبناه، ويسلم إليهم ابن أخيه، فقال: عجبًا لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف وإخراجهم من مكة، والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئًا، ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدًا للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم -بسبب ذلك- في شعب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب فإنه كان مع قريش، وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب١.

هجرة الحبشة الثانية:

وبعد دخول الرسول وقومه الشِّعْب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضًا على الاغتراب، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلًا وثماني عشرة امرأة، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود، وعبيد الله بن جحش، وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وتوجه لهم الذي أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون: أبو موسى وبنو عمه. ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليسلم المسلمين، فرجعا شر رجعة، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قوم لاذوا به، أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريبًا من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية٢.

٥٥]. وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة، وبالكذب أخرى، وبالجنون طورًا، وبالكهانة تارة.

كل ذلك شأن العاجز المعاند الذي لا يستحي لمزيد عناده أن يقول: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢].

وفاة خديجة رضي الله عنها:

وبعد خروجه علي الصلاة والسلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها، كان عليه الصلاة والسلام كثيرًا ما يذكرها ويترحم عليها، ولا غرابة، فهي أول نفس ذكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم. فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع، وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان؛ الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها إلى الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها، ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب، وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغارًا، ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلاً. ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزنًا شديدًا لما كانت عليه من الرقة لرسول الله، ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر١.

زواج سودة:

وعقد عليه الصلاة والسلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها، وهاجرت مع زوجها إلى لحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها، فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به، ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها، وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسبًا وشرفًا١.

زواج عائشة رضي الله عنها:

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها، ولم يتزوج عليه الصلاة والسلام بكراً غيرها، ودخل عيها بالمدينة، أما سودة فدخل عليها بمكة٢.

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر، توفي عمه أبو طالب٣، الذي كان يمنعه من أذى أعدائه، ومع أنه كان لا يكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتي آخر لحظة من حياته، وفيه نزل في سورة القصص: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦] ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه. وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى، فإنهم لو بادروا باتباعه لقيل: قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم فجاءوا بهذا الأمر المفترى، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه أمية،لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها، اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التي كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم: ساحر يفرق بين المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب.

وقد سمى رسول الله هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه عام الحزن. ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب، واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر، ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته، وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له: أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر فإنه تقدم، وقال: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ} [غافر: ٢٨].

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتمم أمر ربه، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خؤولة، فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفي، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردوا عليه ردًا قبيحا، ولم ير منهم خيرا، وحينذاك طلب منهم أن لا يشيعوا ذلك منه كي لا تعلم قريش فيشتد أذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه الصلاة والسلام، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمونه بالحجارة، حتى أدموا عقبه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرم واستظل بها، وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه وكانا في البستان، فكره رسول الله ماكنهما فدعا الله قائلا: "اللهم! إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك" فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا إليه بقطف

من العنب مع مولى لهما نصراني اسمه عَدَّاس. فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يأكل قال: "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ" فقال عداس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له عليه الصلاة والسلام: "من أي البلاد أنت وما دينك؟" . فقال: نصراني من نِيْنَوى. فقال له